



الحياة الأدبية وعوامل نهضتها

انتهت الحياة الأدبية والفكرية للأمة العربية ، منذ احتلال بغداد سنة (٦٥٦هـ) وعلى مدى أكثر من خمسة قرون ، إلى سبات طويل ، انتهى بها إلى الشعور بفقدان شخصيتها ، وضياع هويتها ، إلا إن لغتها ظلت تحتفظ بعناصر القوة والأصالة ، بفضل القرآن الكريم الذي حفظ لها عوامل الصلة بين أبنائها وبين غيرهم من أبناء الأمم الأخرى ، وظل الإسلام يمثل الأصرة القوية بين شعوب الأمم الإسلامية .

وقد وصلت أوضاع الأمة العربية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر إلى حالة من التمزق .

غير أن العديد من الأحداث السياسية والعوامل الفكرية ، والأسباب العلمية منذ بداية القرن التاسع عشر ، كانت تشير إلى حالة من التملل ، الذي انتهى في منتصف ذلك القرن إلى يقظة أدبية وفكرية وسياسية ، إلا إن هذه النهضة كانت وئيدة الحركة ، لكنها ما لبثت أن أتت أكلها في نهاية القرن التاسع عشر ، وقد كان للمصلحين والأدباء والمفكرين اكبر الأثر في هذه اليقظة ، حتى وجدنا صورة الأدب خاصة تتميز تميزاً ملحوظاً عما كانت عليه في بداية ذلك الحكم .

عوامل النهضة:

ثمة كثير من الأدلة تشير إلى أن ١. حملة نابليون على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) : كانت فاتحة النهضة الوطنية في البلاد ، كان الاحتلال الأوربي بمثابة صدمة فكرية واجتماعية هزت التصلب والجمود في مجتمع القرن التاسع عشر في مصر ، فقد حقق العديد من الإصلاحات التي

لم تكن هدفاً لحملته التي لم تدم أكثر من ثلاث سنوات ، وظهرت بوادرها بدخول بواذر المدنية الحديثة في مصر ، كإنشاء المسارح وبناء المدارس ، وإقامة المصانع ، وتأسيس الجرائد وغيرها ، في حين كانت الأقطار العربية الأخرى تعيش وقتئذٍ حالة من التردّي ، سببتها هزائم العثمانيين أمام خصومهم .

٢. وكان للمجمع العلمي المصري : الذي تأسس في نفس السنة التي دخل فيها نابليون إلى مصر قد حقق نتائج إيجابية ، إذ اهتم هذا المجمع بالأبحاث التاريخية والطبيعية والصناعية والكيميائية ، وعنى بالعلوم التطبيقية من طبيعيات واقتصاد ورياضيات ، كما عني بالآداب والفنون .

٣ . البعثات : ومن النتائج غير المباشرة ، وخصوصاً بعدما صار محمد علي حاكماً لمصر تعددت البعثات العلمية إلى خارج مصر في شتى أنواع المعارف والعلوم ، وعاد هؤلاء المبعوثون وقد تسلحوا بما تعلموه وأتقنوه .

٤. الترجمة : وكان للترجمة والتأليف دوراً مهماً في إحياء اللغة وآدابها ، لأن هؤلاء المبعوثين قد توسعت مداركهم ، وأيقنوا إن السبيل إلى إحياء الأمة لا يكون إلا بإحياء تراثها اللغوي والأدبي والتاريخي والفكري والعلمي . وكان ابرز من لمعت أسماؤهم في سماء الترجمة رفاة الطهطاوي ، الذي كان من أوائل المبعوثين إلى فرنسا ، توزعت اهتماماته على كل ألوان المعرفة، من اهتمام بالتاريخ ، والجغرافية ، والفلسفة ، والأدب ، والقانون ، وقد أتقن اللغة الفرنسية اتقاناً لا مثيل له عند غيره ، واسهم في ترسيخ كل هذه الاهتمامات العديد من المناصب التي شغلها ، والتي نتجت بفتح (مدرسة الألسن) التي لم يقتصر فيها على تدريس الفرنسية فحسب ، بل كذلك التركية والفارسية والاطالية والانكليزية ، إضافة إلى الشريعة الإسلامية .

٥ . الطباعة : اقتضى عنصر الترجمة تأسيس المطبعة لطبع ما يترجم ويؤلف وينشر ، ولم يكن الفضل ليرجع إلى مطبعة نابليون التي اشتراها المصريون إلى ما طبع بالعربية لأول مرة ، لأن أول مطبعة عربية قد وجدت في إيطاليا وأول كتاب عربي كان قد طبع بالأستانة عام ١٧٢٨ ، كما سبق السوريون غيرهم في تأسيس أول مطبعة عام ١٧٠٦ ، أما أول مطبعة تتأسس في مصر فهي مطبعة بولاق التي اشتراها محمد علي حينما صار والياً على مصر عام ١٨٣٤ .

وفي عهد الخديوي إسماعيل نشطت الطباعة ، وما تؤول إليه من طبع كتب التراث ، فعلى عهده طبعت أمهات الكتب كالأغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، والمثل السائر لابن الأثير ، وتاريخ ابن خلدون ومقدمته ، والعقد الفريد ، ووفيات الأعيان وغيرها .

٦ . الصحافة : تحقق بفضل الطباعة إنشاء الصحف ، وأول عهد مصر بها كان أيام نابليون إذ انشأ صحيفتين فرنسيتين ، أما أول صحيفة عربية انشأت في مصر عام ١٨٢٢ وهي سنة تأسيس مطبعة بولاق ، وانشأت بعد ذلك صحيفة هي جريدة الوقائع عام ١٨٢٨ ، ثم تلا إنشاء الصحف على عهد الخديوي إسماعيل .

٧ . التأليف : من آثار الطباعة أيضا شيوع التأليف وخصوصاً الكتب العربية والدينية وإحياء المخطوطات المختلفة ، وتعميمها على مختلف طبقات الشعب .

قيض لمصر أن تخطو خطوات أوسع وأسرع في ميدان الأدب والشعر والثقافة . في عهد الخديوي إسماعيل ، الذي انشأ المدارس واستمر في رقد البعثات بكل ما تحتاجه مصر .

إن العوامل التي ذكرت ، والتي كان تأثيرها مباشرا في نهضة الحياة الأدبية منذ نهاية القرن التاسع عشر ، ولم تقتصر على ما ذكرنا وحسب ، فقد كان هناك عوامل اخرى لا تقل أهمية عنها منها :

٨ . اليقضة السياسية : فقد تأثر مجموعة من شباب الوطن العربي بالثورات السياسية التي تفجرت في أوربا ، وسلكت في دعوتها منهجاً قومياً ، يقوم على الاعتداد بالمواطنة الصحيحة ، وقد كان معظم القائمين على الدعوة القومية العربية شباب عنوا بالأدب واتصلوا بالمبادئ الحرة ، والأفكار الجديدة في دعواتهم .

٩ . اليقضة الدينية : التي تولى مبادئها جمال الدين الافغاني ومحمد عبدة وغيرهما . ويقوم تأثير هذا العامل على الدعوة إلى حرية الإنسان وتحرير عقله من القيود ، التي وقفت بينه وبين انطلاقه ، وتخليص الدين الإسلامي وتعاليمه مما علق بها من شوائب .

كما كان لاتصال الثقافتين العربية والغربية عن طريق المستشرقين أثره الفعال كذلك في النهضة الأدبية الحديثة. والمستشرقون جماعة من علماء الغرب تخصصوا في لغات الشرق وآدابه، كما عنوا بدراسة دياناته وتاريخه وعلومه وكل ما يتصل بعباداته وتقاليده وحضارته.

لم تكن الحياة الأدبية في سوريا في مطلع القرن التاسع عشر أحسن حالاً مما كانت عليه في مصر ، وكان الشعر لا يتسع في موضوعاته لاكثر من المدائح والمراثي ، وشعر المناسبات المشحونة بالملق والرياء .

وتكاد اليقظة الأدبية والفكرية التي تحققت في مصر تتكرر في صورة مماثلة في سوريا ، فإذا كان قد قيض لمصر العديد من العوامل التي أثرت في يقظتها ، فقد تهيأ لسوريا من العوامل مثلما توفر لمصر ، فقد كان مدحت باشا في سوريا يسهم الإسهام نفسه الذي أسهمه الخديوي إسماعيل في تقدم الحركة الأدبية والعلمية والفكرية في مصر ، كما اقترن تطور الحركة الفكرية والأدبية في سوريا بالنهوض الديني والتحرر السياسي ايضا ، وتهيأ له رجال أمثال عبد الرحمن الكواكبي واحمد فارس والشدياق واليازجي والشيخ جمال الدين الافغاني .

وإذا كان عامل الطباعة والصحافة قد لعب دوراً فاعلاً في حركة النهضة الأدبية في كل من مصر وسوريا ، فانه لم يفعل الفعل نفسه في العراق ، فعلى الرغم من ان الصحافة العربية في هذا القطر قد وجدت في وقت مبكر ، إذ أن أول جريدة عراقية بالعربية هي الزوراء التي صدرت عام ١٨٦٩، في زمن مدحت باشا ، إلا إن صحيفة واحدة لا يمكن ان تؤدي وظيفتها في حركة النهضة الأدبية والفكرية ، كما أن الشعب بالعراق لم يكن مهيباً لاستقبال الصحافة ، بسبب كثرة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية ، ولطباق الجهل على الاغلبية العظمى من سكانه ، ومع هذا فان جريدة الزوراء تعتبر الحجر الاساس في خلق الصحافة العراقية الحرة ، وتكم أهمية هذه الصحيفة أنها ارتبطت بأول مطبعة تأسست في العراق وهي مطبعة الزوراء التي جلبها الوالي مدحت باشا من فرنسا عام ١٨٨٥.

تتابع مع صدور الصحف صدور مجموعة من المجلات الادبية والاجتماعية والتاريخية والفكرية ، وفي مقدمتها لغة العرب لانستاس ماري الكرمللي وشمس المعارف لإبراهيم صالح شكر إلا إن تأثير الصحف في هذه الفترة كان محدودا ، لأسباب تتعلق بالواقع السياسي والفني ،

ومنها ما يتعلق بالجمهور الذي لم يكن يعنى بالصحافة لجهله. إلا إن تأثير الصحافة صار مجدياً منذ فترة الحكم الشعبي لأن الصحف في هذه الفترة تميزت بنشر الوعي الوطني والقومي والفكري ، ومن الذين اسهموا في الكتابة ، ابراهيم صالح شكر و وانستاس الكرمللي ، والرصافي ، وباقر الشبيبي .